(ISSN: 2959-5436) مجلة جامعة سومر للعلوم الانسانية (SUJHUS)
عدد خاص بوقائع المؤتمر العلمي الدولي الرابع للعلوم الانسانية والتربوية والنفسية الذي اقامته جامعة سومر للفترة من 7-8 نيسان 2025 (القسم الرابع), الصفحات 561-576

محكيات التاريخ السياسي في نماذج من الرواية العراقية

م.م. علي كاظم داود [1]*

أ.د. حامد مردان شروان [2]*

[1]جامعة البصرة، كلية الآداب، البصرة، العراق

[2]جامعة البصرة، كلية الآداب، البصرة، العراق

الملخص:

يرصد هذا البحث نماذج مُمثلة للمحكيات التاريخية ذات الطابع السياسي، في بعض الروايات العراقية، ويعتني بكون هذه المحكيات قد جرى سردها من منظور الطبقات المهمشة في المجتمع.

يعتمد البحث الدراسات الثقافية مدخلًا وأساسًا لتحليل النصوص وفهمها، وهي ترى، أي الدراسات الثقافية، في إعادة كتابة التاريخ روائيًا فعلًا ناقدًا ومضادًا للمراكز والسلطات، ودعمًا لمواقف المظلومين والمضطهدين في المجتمع.

تناول البحث أربع روايات هي: دروب الفقدان، نور خضر خان، السادس أحمر، ولعنة الأمريكان. واستل منها المواضع التي حضرت فيها المحكيات التاريخية السياسية فقط، ناظرًا لأثرها في العوالم الروائية.

الكلمات المفتاحية: محكيات، تاريخ، سياسية، الرواية العراقية، الدراسات الثقافية.

= Political Historical Narratives in samples from the Iraqi Novel

Asst. Lecturer. Ali kadhim Dawood[1*]

Professor Dr. Hamed Mardan Sherwan[2 *]

[1]University of Basra, College of Arts, Basra, Iraq

[2]University of Basra, College of Arts, Basra, Iraq

Abstract:

The This research monitors representative models of historical narratives with a political character in some Iraqi novels. It focuses on the fact that these narratives have been told from the perspective of marginalized classes in society.

The research adopts cultural studies as an approach and foundation for analyzing and understanding the texts. Cultural studies views the rewriting of history in a novelistic form as a critical and counter-hegemonic act against centers and authorities, and as support for the positions of the oppressed and marginalized in society.

The research examined four novels: "Paths of Loss," "Nour Khidr Khan," "The Sixth Red," and "The Curse of the Americans." It extracted from them only the

* **Email address: artpg.ali.dawood@uobasrah.edu.iq**

* **Email address: Hamed.mardan@uobasrah.edu.iq**

places where political historical narratives were present, considering their impact on the fictional worlds.

Keywords: Narratives, History, Political, Iraqi Novel, Cultural Studies.

المقدمة:

يظهر لمن يتابع محكيات التاريخ في النماذج الروائية العراقية أنها جاءت على أنماط متعددة، ويأتي هذا التعدد تبعًا للمرجعية التي أتى منها المحكي التاريخي، فقد يكون سياسيًا أو سيريًا ذاتيًا أو سيريًا غيريًا، أو غير ذلك.

توظف الروايات الوقائع التاريخية المهمة، فتوردها كما هي أحيانًا، أو تجري عليها بعض التعديلات، زيادةً أو حذفًا، أو تغييرًا في مجرياتها وتفاصيلها. ومن الطبيعي أن تعتمد في استقاء المحكيات التاريخية على المصادر والنصوص السابقة التي وثقتها، وهي في هذه المواضع تتناص بشكل قصدي مع تلك الوثائق والمصادر، إذ إنها وسيلتها في الحصول على المادة المرجعية التاريخية[1]. وأية رواية تعتمد هذه الشاكلة تعدّ رواية حوارية، متعددة الأصوات؛ لأنها تزاوج بين ما هو مرجعي، مستدعى من الواقع التاريخي، وما هو تخييلي، من عنديات الكاتب وخياله.

تستعين ذاكرة المنسيين والمهمشين في الروايات، بالوقائع المؤرخة؛ لنسج حكاياتها، وتقديم قضاياها للعالم، أو لإعادة كتابة التاريخ من منظورها، ولذلك يحصل بين النصوص الجديدة والنصوص السابقة تفاعل خطابي، فيؤثر أحدهما في الآخر، كما إن من مؤثرات التناص أن يكون التاريخ والسياق الاجتماعي داخلًا في النص، وأن يصبح النص الجديد جزءًا من التاريخ ومؤثرًا فيه. فالنص عندما يستجيب لنصوص سابقة له، ويعيد تمثيلها وتوظيفها؛ يساعد بذلك في تشكيل الواقع، ويسهم في عمليات التغيير، ومن أهم مظاهر ذلك أنه يسبق النصوص اللاحقة، ويؤثر في صياغتها. وهذا الطابع التاريخي في النصوص الروائية وغيرها، يمنحها قدرة النهوض بأدوار اجتماعية كبرى؛ بوصفها من أدوات التغيير الاجتماعي والثقافي المهمة[2].

يأخذ المؤلف دورًا فاعلًا في تبيئة المحكي التاريخي في إطار عالم روايته، لكن ليس بوصفه وثيقة تاريخية، إذ إنَّ «**السرد التخيلي أو الروائي يمتلك حرية الإشارة إلى أناس حقيقيين، وأماكن وأحداث حقيقية، إلا إنه لا يُوظف بوصفه دليلًا على ما حدث في العالم الحقيقي**»[3]؛ لأن مقتضى الحال هو خيالية الرواية وابتداعها، حتى لو كان لبعض أحداثها ومفاصلها مرجعية خارج حدودها. إذ تشير محكيات التاريخ المُضمَّنة في الرواية إلى الأحداث التاريخية، لا على نحو التوثيق، بل لتساهم في فهم حقائقها، والنظر إليها بطريقة مغايرة عن نظرة المؤرخين، فهي توفر لنا رؤية ثقافية عميقة، وتحليلًا سرديًا غير مباشر. ومن شأنها أن تتنوع؛ بحسب طبيعة موضوعها، وسينصرف هذا البحث إلى تتبع المحكي التاريخي السياسي الذي يُعبّر عن «**تاريخ من لا تاريخ له من المهمشين**»[4].

تمثل السياسة الشاغل الأبرز للرواية العراقية، حتى لا يكاد يجاريها شاغل آخر. وربما يتفق جميع الباحثين والنقاد على أن النوع السياسي هو أكثر الأنواع الفرعية شيوعًا في الرواية العراقية، خصوصًا بعد زوال الحكم الدكتاتوري الصدّامي، الذي كان يُطْبِق على البلاد بقبضة من حديد ونار، ويعمل على تنميط النتاج الثقافي والأدبي بما يتوافق مع آيديولوجيته. فلم يكن ثمَّة موضوعٌ أكثر إغراءً للكتابة، بعد عام 2003، أكثر من السياسة، التي كان الخوض فيها قبل ذلك العام لعبٌ بالنار.

انفتحت أبواب الرواية العراقية على مصراعيها لاستقبال التاريخ السياسي، الذي كان محظورًا تمثيله بحيادية

وموضوعية في زمن القمع البعثي، فضلًا عن تجسيد ما لا ترضاه أجندات الحزب والسلطة، أو نقدها، وأخذت النصوص باستدعائه من منظور الفئات المهمشة اجتماعيًا وسياسيًا، لكي تقدم الوقائع التاريخية بطريقة جديدة كانت مقموعة سابقًا.

ينبني محكي التاريخ السياسي على ما تستدعيه الذاكرة السردية، الفردية للكاتب، أو الجمعية للمجتمع، ممتزجًا بما ينسجه التخييل السياسي، من أجل تحليل الوقائع التاريخية، وإعادة النظر في القضايا السياسية، ونقد الأنظمة والسلطات والعقائد السياسية. إذ تشتغل الرواية ما بعد الحداثية على التاريخ ثقافيًا؛ لتعرية المراكز والسلطات، من أجل خلخلتها وتقويضها، مؤكدةً بذلك على «**فكرة استجلاب التاريخ إلى حضن الحاضر، فترى فيه التقاطات خفية أو أمورًا مسكوتًا عنها تضمنها التاريخ، كاشفة عن المقموع والغائر؛ لكي تطلق قيوده، وترفع عنه الحيف، وتعيد له حقيقة دوره**»[5].

لعل من الضروري أن يتجه البحث إلى معاينة نماذج من الروايات العراقية؛ لتأكيد رؤيته حول أبعاد حضور محكيات التاريخ السياسي وتوظيفها سرديًا، ومحاولة إيراد الاقتباسات التي تؤدي غرض التمثيل له، وتحليلها ثقافيًا.

- **رواية: السادس أحمر**

تستعيد رواية (السادس أحمر) للكاتب (أحمد خيري العمري) بعض المفاصل المهمة من تاريخ العراق الحديث، ولكن من منظورات متعددة، تجسد أغلبها منظورات المتضررين من الأنظمة السياسية التي تعاقبت في حكم العراق. إذ تتناوب مجموعة من الشخصيات في سرد محكياتها، وتسجيل بعض المآسي التي عاشتها على يد السلطة. هذه الشخصيات يجمعها رابط مشترك، يتمثل في أنهم كانوا جميعًا طلابًا في الصف (السادس أحمر) إذ كانت الصفوف الدراسية التي تقسم إلى مجموعة شعب، في بعض مدارس العراق، تُسمى كل واحدة منها بلون معين؛ تمييزًا لها عن الأخريات.

تحولات التاريخ الدموي:

تشهد الرواية تعددًا للأصوات، واختلافًا في الآراء حول بعض القضايا التاريخية المهمة، ومنها: إسقاط الحكم الملكي، والانقلابات التي تلته، والحروب الخارجية والداخلية، وتسفير التبعية الإيرانية، والإبادة الجماعية لبعض فئات المجتمع العراقي... وغيرها. فهي رواية حوارية، بوليفونية، تعرض وجهات النظر، وتسجل الوقائع، وتثير القارئ وتدفعه للتفكير في ما جرى بطريقة مغايرة.

تحضر محكيات التاريخ السياسي العراقي الحديث في الرواية، مع واقعة «**الانقلاب العسكري في تموز عام 1958 (... الذي) أطاح بالعهد الملكي وصولًا إلى السحل والتمثيل بجثث بعض رموزه، وكان من نتائج هذا الانقلاب – الثورة إزاحة العوائل البارزة في العهد الملكي من المشهد، وأصبح كل شيء يتعلق بذلك العهد يعتبر بائدًا، بعد أن أصبح العهد الملكي يسمى بائدًا**»[6]. هذا الاستحضار ينطوي على وعي انتقادي، نابع من حس إنساني، إذ يعيد إلى الأذهان أحداث الاستيلاء غير السلمي على السلطة، وقد شهده العراق الحديث مرارًا، ابتداءً بالقضاء على الحكم الملكي على يد عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف، ومجموعة من ضباط الجيش المعاونين له.

يمثل هذا الحدث نقطة خطيرة في التحولات التاريخية التي شهدها البلد، وقد أسس للعنف بوصفه وسيلة للتغيير السياسي، وأظهر وجه الجمهورية الجديدة في إطلالته الأولى مصبوغًا بلون الدم. واستذكار هذا الحدث يحسب في خانة النقد الذي توجهه الرواية للقائمين بهذا الفعل. مثلما تعمد إلى تفكيك الاستعمالات اللغوية للعهد الجديد، ومن أمثلتها في هذا الاقتباس وصفه العهد السابق بالبائد، لتكون هذه الصفة أداةً لفظية لنزع الشرعية عنه، فتتحول اللغة إلى وسيلة قمعية في يد

السلطة، من أجل فرض سردية أحادية للتاريخ. كما تشكك بتسمية الثورة، وهي التسمية الرسمية التي اعتمدها نظام عبد الكريم قاسم لحركته، لإضفاء الشرعية على حكمه، وتُقدم عليها تسمية الانقلاب؛ لأن الثورة شعبية، أما ما حصل فهو انقلاب عسكري دموي. «**قتل في هذه الواقعة الملك فيصل الثاني وخاله الوصي عبد الإله وجدته الملكة نفيسة وخالته الأميرة عابدية. حاول رئيس الوزراء نوري السعيد الفرار ولكن ألقي القبض عليه وقتل في الأيام التالية**»[7]. فالرواية تكشف أن لحظة الخلاص من الملكية، ونهاية العهد البائد، لم يكن ثورة تحررية تحترم الإنسان والوطن، وتعد بمستقبل عادل، بل أعلنت عن ولادة نظام جديد يشكل العنف والقتل الجماعي عنصرًا مركزيًا في بنيته، فهو لم يغيّر نظام الحكم فحسب، بل قتل أشخاصًا معرفين بأسمائهم وصفاتهم، ربما لم يرتكب بعضهم جرمًا يستحق عليه القتل، دون محاكمة أو غطاء قانوني.

تُعبِّر الرواية عن وجهة نظر بعض فئات المجتمع العراقي إزاء الحكم الملكي الذي قضى عليه العسكر بالقول: «**لا تزال هناك مشاعر حنين للعودة للعهد الملكي، ولكن هذه المشاعر مبنية بقوة مساوئ العهود اللاحقة بشكل أساسي. لم يكن العهد الملكي خيرًا مطلقًا، لكن المقارنة تكاد تجعله كذلك**»[8]. فهذا المنظور يعاين مراحل عديدة شهدها العراق تاريخيًا، ويخلص إلى أنَّ الوضع السياسي والاجتماعي في هذا البلد كان ينتقل من سيئ إلى أسوأ، ما دفع بعض الفئات للحنين إلى الزمن (الجميل)، المرتبط بالنظام الملكي، والرغبة في عودته إلى الحكم مرةً أخرى[9]، بعد ما رأوه من ويلات النظام الجمهوري. هذا النظام الذي يجب أن يأتي بطريقة سلمية، واختيار شعبي، ويوفر الرفاه والرخاء، ابتدأ بجريمة مريعة: «**قتلوهم بطريقة بشعة في مجزرة قصر الرحاب. كل ما حدث للعراق لاحقًا كان كرامة للملك الشاب القتيل في صبيحة السابع عشر من تموز**»[10]. وفكرة الانتقام الإلهي والثأر لمقتل الملك البريء وعائلته، لها صدى يتردد من حين لآخر بين الناس البسطاء، وهذه الصيغة السردية تجسد وجهة نظر ناقدة، وربما ناقمة لما ارتكبته القوى التي استحوذت على السلطة بالقوة والبطش.

محكيات التهجير والإقصاء:

من الوقائع السياسية الخطيرة في العراق الحديث، وقائع تهجير أو تسفير عدد كبير من العوائل التي سكنت في العراق عقودًا طويلة، واكتسب أفرادها الجنسية العراقية؛ لأنهم ولدوا هم وآباؤهم، وربما أجدادهم، على هذه الأرض. بين ليلة وضحاها نقمت سلطة حزب البعث على هذه الشريحة الاجتماعية، فأطلقت على أفرادها صفة (التبعية)، وأسقطت عنهم الجنسية العراقية، ونفتهم خارج الحدود، وصادرت جميع ممتلكاتهم. تستذكر الرواية هذه الجريمة على لسان إحدى شخصياتها، وهي امرأة اسمها سوسن، يطال عائلتها غضب السلطة، بزعم أنهم من أصول إيرانية. عانت سوسن ويلات الطرد من المنزل والوطن، لمجرد وصف بعض أجدادها بأنهم تبعية، وهذه الصفة تصنيف إقصائي، بحسب المعجم السياسي البعثي، ويُنظر لمن تُلصق بهم على أنهم في مرتبة أدنى من المواطن العراقي الأصيل، الذي يعود بجذوره أبًا عن جد إلى الجنسية العراقية.

تناقش الرواية قضية هؤلاء الناس الذين تعرضوا لظلم كبير، وتؤكد: «**لم يسافروا بإرادتهم، يا ريم، الحكومة قامت بتسفيرهم**»[11]. وتتساءل باستغراب: «**يسفرونهم لماذا؟ لأنَّ أجدادهم كانوا إيرانيين قبل مائة سنة؟**»[12]. وتذكر المصادر أنَّ عدد المسفرين من العراق إلى إيران بلغ عشرات أو مئات الآلاف[13].

السبب المعلن لتهجير هذه الفئة من المجتمع العراقي من قبل السلطة البعثية هو تبعيتهم لإيران، ولكن الرواية تكشف

سببًا آخر، إذ تقول: «**أول حادثة تسفير معروفة في تلك الفترة كانت بتاريخ السابع من نيسان 1980 (...) واستهدفت مجموعة من كبار التجار الذين استدعوا للقاء أحد المسؤولين في غرفة تجارة بغداد، ولكنهم جُمعوا في شاحنات ووضعوا على الحدود**»[14]. وفضلًا عن التصفية السياسية التي يتوخاها هذا الإجراء التعسفي، تشير الرواية إلى رغبة السلطة في مصادرة رؤوس الأموال، والاستحواذ على ثروات عدد كبير من المواطنين بذرائع غير قانونية، كأنها لم تكن دولة يحكمها القانون، بل مافيا تقودها عصابة إجرامية.

هذه الأحداث التاريخية المؤلمة تجد صداها في ملفوظات بعض شخصيات الرواية، إذ تصفها بالقول: «**ما حدث كان ظلمًا كبيرًا، (...) والدته قالت: إنَّ للمسفّرين (حوبة) سيدفع الجميع ثمنها**»[15]. فنجدها تستعمل المفردات الدارجة في اللغة العراقية، للتعبير عن الأثر الاجتماعي البليغ الذي تركته في النفوس، وهو موقف لم يكن أحد يستطيع إشهاره علنًا.

تستطرد الرواية في ظاهرة التسفير والتهجير الذي اتبعته الحكومة البعثية فتقول: «**ما مررتم به مرّ به الأكراد قبل وبعد، وأكثر أيضًا. بل إن تسفير (التبعية الإيرانية) بدأ بالأكراد العراقيين الذين لديهم تبعية إيرانية، وهم الأكراد (الفيلية)، في بداية السبعينات، قبل أي أحد آخر. عدا التهجير اللاحق في الثمانينات والكيمياوي في حلبجة**»[16]. فهي تصرح بأنَّ الجرائم ضد الإنسانية، والإبادة الجماعية بدأت بالأكراد قبل بقية فئات الشعب العراقي، وبذلك تؤكد أنَّ السلطة كانت ترفض الاختلاف، ولا تؤمن بالتعددية السياسية أو الثقافية، وتقمع الأقليات من أجل دفع الجميع إلى مطابقتها آيديولوجيًا.

من المحكيات التاريخية في الرواية أيضًا، ما وقع في بداية حكم صدام حسين، ذلك الحدث الذي وصفته الصحافة البريطانية وقتها بمجزرة مدينة الطب، عندما أصدر صدام قرارًا بإحالة عدد كبير من الأساتذة البارزين في كليات الطب، الذين يعملون أيضًا في مستشفيات مدينة الطب ببغداد إلى التقاعد المبكر، وشملت القائمة مجموعة من أهم الأسماء التي يصعب تعويضها في مجال الطب والتدريس الطبي، كما إن النظام من جهته «**لم يبرر القرار بأي صيغة رسمية، لكن الرأي العام هو أن الأسماء كانت مستقلة عن حزب البعث العربي الاشتراكي**»[17]. وهذا يبين أنَّ السلطة لم تكن تعير أهمية للكفاءة والمكانة العلمية والخبرة في مجالات العمل، بل يهمها الولاء السياسي والآيديولوجي فقط.

- **رواية: دروب الفقدان**

يتخذ التاريخ السياسي العراقي الحديث موقعًا مهمًا في رواية الكاتب (عبد الله صخي) التي عنوانها (دروب الفقدان)، إذ تعتمد كثيرًا على توظيف محكياته، وتتجه إلى تخييل التاريخ في مواضع كثيرة منها، فمنذ استهلالها تسرد الرواية مشاهد أول واقعة إعدام علنية في مدينة الثورة، ببغداد، إبان حكم نظام حزب البعث الاستبدادي، في سبعينيات القرن الماضي، ثم تتلوها إعدامات أخرى تحت طائلة تهم سياسية، أبرزها الانتماء للأحزاب المناوئة لحزب البعث.

هذه الواقعة التاريخية التي تحتفظ بها الذاكرة الجمعية الشعبية في العراق، تُسرد في الرواية من منظور المهمشين، سكان مدينة الثورة الفقراء؛ لكي تُعبِّر عن بعض صور الاضطهاد والقمع السياسي الذي تعرضوا له، على حين تبدو عملية الإعدام من منظور السلطة تنفيذًا لحكم القضاء العادل، وتطبيقًا للقوانين والقرارات المُنصفة.

تاريخ المدينة المنسية:

يأتي المحكي التاريخي في الرواية محاطًا بعالم متخيل، تؤثثه شخصيات وأحداث مختلقة، تدور غالبًا حول شخصية

علي سلمان، وعائلته، وأثر الواقع السياسي عليهم، في مدينتهم المرمية على هامش العاصمة، حيث نظرت لها السلطة التي جاءت بعد إسقاطها لحكم عبد الكريم قاسم، مؤسس مدينة الثورة، بوصفها كائنًا دخيلًا في مجتمع المركز، أو عضوًا غريبًا في جسدها الذي يراد له أن يكون خالصًا ونقيًا للنخبة والصفوة، وهم أتباع السلطان وحاشيته، ومن أجل ذلك تعاملت معها بإهمال شديد، وأصدرت قرارات بتهجير بعض سكانها والتضييق عليهم، وأشاعت في المجتمع نظرة عنصرية نحوهم.

وقائع الإعدام العلنية، في زمن حكم البعثيين، كانت تحصل بكثرة، وفي كل المدن؛ من أجل تحقيق الردع العام، والتخويف للجميع، وضمّ الناس إلى حظائر الحزب والسلطة، أو تحقيق القبول بها، أو السكوت على جورها في الأقل. وهذه الوقائع التي حفظها لنا التاريخ الحديث والذاكرة الاجتماعية، عندما يجري توظيفها في الرواية فإنها لا تأتي لتسويد الصفحات فقط، بل تشير إلى موقف الكاتب الصريح، وتساهم في تمرير مقاصده الثقافية، ورؤيته للتاريخ المعاصر، والأحداث التي شهدها.

من أهم المحكيات التاريخية ذات الأبعاد السياسية في رواية (دروب الفقدان) هي واقعة إعدام الرياضي بشار رشيد، وهو أحد أبناء مدينة الثورة، من أصول جنوبية، ظهرت موهبته الكروية مبكرًا، وبعدما انتسب إلى سلك الشرطة، لعب لنادي الشرطة، وللمنتخب الوطني العراقي، إلى أن اعتُقل من ملعب الشعب الدولي، بعد نهاية إحدى المباريات التي خاضها مع ناديه، «**وبعد سنتين ونصف السنة ويومين أمضاها خلف القضبان، نُفذ فيه حكم الإعدام بتهمة الانتماء للحزب الشيوعي، وممارسة نشاط سياسي في مؤسسة عسكرية**»[18].

ما الذي أرادت الرواية قوله عندما استدعت هذه الواقعة؟

بدءًا، يمكن النظر إلى الرواية، عمومًا، بوصفها وسيلة نقد ومقاومة، تسعى بالإنسان إلى الخروج من فضاء مغلق وقاهر وأحادي، إلى فضاء الحرية والتعدد. فالفن الروائي مشروط بوعي التحديث والتنوير، ويطمح إلى المغايرة والاختلاف، ويتيح المجال للفكر والفعل السياسي والاجتماعي والإبداعي، حتى إنه قد يُعرّض المُسلَّمات الفكرية والاجتماعية الأساسية للمُساءلة أو النقد، وهو يدعم الحقوق المدنية، ويؤسس لمعاني المواطنة، ويدفع إلى مناهضة الهيمنة بكل أشكالها وصيغها[19].

أما هذه الرواية التي نحن بصدد مناقشتها، فإنها إذ تستعيد تلك الواقعة السياسية، إنما تريد الإعلان عن الوقوف بوجه الاستبداد والظلم والقمع، وفضح الواقع السياسي المؤلم الذي عاشته فئات واسعة من المجتمع، سواءً مجتمعها الخاص، في تلك المدينة الفقيرة، أو المجتمع العراقي بشكل عام؛ بسبب العلاقة التمثيلية بينهما. ومن الحقائق التاريخية التي ترد في هذا السياق أيضًا، ما يُذكر عن مركز شرطة التهذيب، «**الذي تحول إلى مركز للاعتقال والتعذيب وتسفير المحتجزين إلى سجون أخرى. وكان ذلك التحول مقصودًا إذ أرادت السلطات أن يكون مركز التهذيب حلقة وصل بين مدينة الثورة والعاصمة بغداد لإرهاب المعارضين والمتمردين**»[20]. فهذا المركز يمثل في ذاكرة المقهورين والمُراقَبين من أبناء المدينة، نقطة تقاطع الهيمنة السلطوية والقمع السياسي والتمييز الاجتماعي، إذ تحول إلى فضاء تصفية لخصوم السلطة، فتحولت وظيفة المكان من مركز شرطة، يقوم بوظيفة إصلاحية وقانونية، إلى وسيط لإرهاب المعارضين لسياسة الدولة، كما تُستعرض فيه أساليب الردع لكل من تسول له نفسه القيام بأي نشاط سياسي، فيخلق المفارقة في التسمية، مركز التهذيب، وهو في الحقيقة وكر للتعذيب.

تأتي واقعة إعدام بشار رشيد ضمن سلسلة إعدامات كثيرة شهدتها الرواية، هي ذروة ما يصل إليه البطش السياسي،

إذ يسبقه الملاحقة والسجن والتنكيل، وغيرها من الممارسات التعسفية التي تنتهجها أجهزة السلطة. ولعل هذه الرواية من أكثر الروايات انشغالًا بالتتبع التاريخي للجرائم السياسية في زمن الحكم البعثي في العراق. وعلى الرغم من كون أغلب وقائعها من نسج خيال الكاتب، غير إنها كانت تسعى لأن تكون تمثيلًا صادقًا لحقيقة الواقع المزري الذي عاشه أبناء تلك البيئة الواقعة على الهامش الشرقي للعاصمة، ومن بعد ذلك ما عاشه العراقيون جميعًا.

تُسلّم جثة بشار إلى والدته في إجراءات أمنية مشددة، ويرافقها رجال الأمن إلى مثواه الأخير، ويُمنع أهله من إقامة مجلس عزاء على روحه، لكن مع ذلك يعمُّ الحزن في محلة سكناه، وتعلو أصوات النحيب والأهازيج لفراقه، «**خيَّم على المدينة جو من الوجوم، توقفت حركة السير إلا من سيارات الشرطة ورجال الأمن الذين زُوِّدوا بأوامر باعتقال كل من يتسبب باضطرابات**»[21]. فقد كانت الأجهزة السلطوية تتوقع ردود فعلٍ مناهضة، تؤكد الرفض الاجتماعي لها، ولجريمتها بحق النجم الرياضي المحبوب، لكن الخوف من العقاب دفع الناس إلى لزوم الصمت، الذي لم يكن علامة رضًا أبدًا.

بشار، ومن ينتمون لأحزاب غير حزب البعث، ومن سيتسبب في اضطرابات وبلبلة، هم كلهم في منظور السلطة أعداء لها، ويجب تخويفهم أو ردعهم أو القضاء عليهم، ولذلك تكون عملية الإعدام قصاصًا عادلًا، لكن من منظور الهامش ستكون السلطة هي المعتدية؛ لأنها تسيء إنفاذ القوة التي تمتلكها، وتعمل على فرض آيديولوجيتها على الجميع، أو تسعى لتحقيق الرضا بها، باستعمال العنف المقنن.

تولي الرواية أهمية لاستعراض تأثيرات الحدث على شخصياتها، أي إنها لم تكتفِ بنقل الحدث الواقعي إلى عالمها المتخيل وحسب، بل عملت على جعله فاعلًا ومؤثرًا، وسجلت انعكاساته في نفوس الأفراد الذين اختلقتهم، وفي ممارساتهم. صحيح أنهم قد يكونون صورةً لأناس حقيقيين عرفهم أو سمع عنهم كاتب الرواية، وغيَّر أسماءهم فقط، لكن في نهاية الأمر هم لا يطابقون أشخاصًا في الواقع، مثلما هو الحال مع بشار. هؤلاء الناس، الحقيقيون أو المختلقون، خيَّم عليهم الحزن والخوف والسكون واليأس، وبات الجو من حولهم مُلبَّدًا بالتوتر والقلق، مع انتشار لعدد من الغرباء والمخبرين السريين بينهم، حتى لقد تجمدت الحياة في قطاعات مدينتهم لعدة أيام. لكنهم مع ذلك خرجوا بالآلاف لوداعه، ما أشعَرَ رجال الأمن بالذعر، بحسب ما روت الأم. ثم عاش الناس أيامًا من الوجوم وانعدام الرغبة في الحياة، توافدت خلالها النساء لتعزية الأم، وقد «**شعرْنَ بأنَّ البلاد كلها فقدت رمزًا وطنيًا بدت خسارته تشبه خسارة حرب**»[22]، لكنه في نظر السلطة مدان بجريمة سياسية، وهي التفكير خارج صندوقها، ولذلك لا يستحق البقاء على قيد الحياة، ولا حتى أن يحزن على فقده أحد.

تحالف البعث والشيوعية:

تُبدي بعض شخصيات الرواية موقفًا ناقدًا إزاء الجبهة الوطنية والقومية التقدمية، التي نشأت من تحالف حزب البعث والحزب الشيوعي، بشكل رئيس، فضلًا عن قوى سياسية أخرى، وترى أنها لم تكن ذات جدوى، إذ لم تسهم في إطلاق حرية التعبير، أو إنهاء الاعتقالات، أو السماح بالعمل السياسي العلني، أو إنهاء الإجبار للطلاب والموظفين على الانتماء إلى الحزب الحاكم... فضلًا عن عدم إيقافها لسفك الدم السياسي. على حين كان النظام يرى في هذه الجبهة حركة تصحيحية مجيدة، مثلت أول عملية مصالحة بين الحزبين. و حول هذا الموضوع دار حوار بين علي سلمان مع علوان عزيز، يقول السارد عنه: «**أمضيا وقتًا بالنقاش فتوصلا إلى عدم جدوى التحالف، الذي أطلق عليه (الجبهة الوطنية والقومية التقدمية)، بين حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم والحزب الشيوعي العراقي**»[23]. فهذه الشخصيات المهمشة تنظر إلى إليه بوصفه تحالفًا زائفًا، ينبني على خديعة التقدمية، ووهم الجمع بين الحلم القومي والطموح الوطني، وتراجع طبيعة

العلاقات والاصطفافات السياسية التي ميّزت تلك الحقبة من تاريخ العراق، التي اتخذت غطاءً للهيمنة.

تؤشر الرواية أن هذا التحالف هو مكيدة سلطوية لاحتواء الخصوم، وقمع الحركات السياسية المناوئة لها، فالفكر الشمولي الذي يحمله حزب البعث لا يتقبل الآخر بأي حال من الأحوال، ومن أحسن الظن به من النخب السياسية والثقافية في البلد، أصيب بخيبة أمل كبيرة. فهو لا يلتزم بأية حدود أخلاقية أو مواثيق، بل منهجه الكذب والكيد بالغرماء.

صراع البعث والشيوعية على السلطة يعود إلى ما قبل ذلك، وقد حصلت إثره مذابح وتصفيات كثيرة، كما دفع الناس بعضًا من ثمنه، ومنه «**حين وقع انقلاب الثامن من شباط عام 1963 (...)، في ذلك اليوم كانت طائرات الانقلابيين تخترق أجواء بغداد، فيما كان المارة يسرعون عائدين إلى أكواخهم الطينية للاختباء، أو خارجين منها إلى شوارع المدينة؛ لمناصرة الزعيم عبد الكريم قاسم المحاصر في وزارة الدفاع**»[24]. ولعل تسمية عبد الكريم قاسم بالزعيم كانت هي المفضلة أو الرائجة لدى طبقات كثيرة من المجتمع، خصوصًا الفقراء والعمال والفلاحين، الذين ينشط بينهم الشيوعيون، وبعد القضاء على الزعيم جرت مطاردة أتباعه من الشيوعيين، وإلقائهم في السجون.

في الاقتباس السابق تستدعي الرواية لحظة الإطاحة بحكم الزعيم، وبداية صعود البعث إلى السلطة، فتعيد كتابة الحدث من منظور شعبي، ناقد، ينحاز للضحية، ويكشف صدمة التغيير السياسي المفاجئ في نفوس الناس البسطاء، وارتباكهم، وانقسامهم بين من يهرب إلى كوخه خوفًا من الطائرت، أو يخرج منه لنصرة الزعيم، فكأن هذا الصراع المهول يدور في حلبة هشة وأكواخ طينية بائسة، ويدفع ثمنه فقراء لن يكون لهم ربح فيه.

تلاحق الرواية تاريخ السلطة البعثية، ومما تتحدث عنه أيضًا إعلانها عن محاولة انقلاب فاشلة «**دبرها مدير الأمن العام ناظم كزار، الذي اشتهر، في ذلك الوقت، بالقسوة حتى وصف بأنه ملك التعذيب**»[25]. وقد وصفت إحدى شخصيات الرواية ما حصل بأنه تصفيات داخلية، إذ أُعدم على إثرها ناظم كزار وبعض الأشخاص معه، وشككت بالرواية الرسمية التي قالت إنه استهدف اغتيال الرئيس ونائبه. «**كان مدير الأمن العام السلاح الضارب بيد السلطة، فبواسطته تمكنت من تصفية من اعتبرتهم خصومًا سياسيين. كان يشرف على إدارة سجن يثير اسمه الرعب: قصر النهاية**»[26]، ومع ذلك تخلصت منه على الرغم من مكانته المهمة في إدارة أجهزتها القمعية، وتاريخه الملطخ بالإجرام، خصوصًا بحق القوى السياسية والاجتماعية غير الموالية للسلطة[27].

يكشف هذا المحكي خلافات وصراعات وتصفيات داخل بنية الحزب الحاكم، من أجل أن يستفرد صدام بالسلطة، فيقضي على كل الأنداد المحتملين، حتى باتت السلطة تأكل أدواتها الأشد ولاءً، إن شعرت منهم بالخطر. وهذا نمط من التأريخ غير الرسمي، وهو أمر جوهري في الدراسات الثقافية، فهي لا تسلم بالظاهري، بل تفتش بما يختبئ وراء الوقائع.

هذه عيّنات من المحكيات التاريخية السياسية، التي استدعتها الرواية، من مرجعياتها، حيث احتفظت بها ذاكرة الواقع العراقي، ومروياته، ومدوناته؛ لكي تدرجها في سرديات عالمها، ويكون لها دور ووقع في صناعة الأثر الذي تهدف إليه.

- **رواية: نور خضر خان**

تشتمل رواية (نور خضر خان)، للكاتب (جابر خليفة جابر) على كثير من محكيات التاريخ، التي يمر عليها السارد سريعًا، ثم ما يلبث أن يغادرها إلى غيرها، ويتقاطع سرده لهذه الإضافات السردية الحية[28] مع كثير من الأحداث المتخيلة، وتشتركان وظيفيًا لصناعة الكون الروائي. ومن بين ما استدعته الرواية ما يندرج ضمن النمط السياسي.

تحولات تاريخية:

من المحكيات التاريخية السياسية المهمة التي تضمنتها الرواية، الإشارة إلى نكسة حزيران، في الحرب العربية مع كيان الاحتلال الصهيوني للأراضي الفلسطينية. «**كان تخرج الأصدقاء الثلاثة سهيل وآرميك وجمال قد تزامن مع تداعيات حرب حزيران، وخسارة العرب الكبرى فيها، والتي شكلت صدمة فكرية ووجدانية عنيفة له وللكثير من أبناء جيله، وكان سهيل وصديقه الحميم جمال بن عدن وحتى آرميك ممن أثرت تلك الهزيمة القاسية فيهم، فانغمسوا بنقاشات طويلة وعميقة وانشغلوا كغيرهم من الشباب المتعلم بإعادة تقييم لقناعاتهم الفكرية والسياسية والأوضاع السائدة التي يتهمها جيلهم عمومًا بأنها السبب وراء هذه الانتكاسة**»[29]. ومثل هكذا إشارات تدل على أنَّ الرواية العراقية ليست بمعزل عن سياق تاريخ الأمة الناطقة باللغة العربية، وأنها تتأثر بالأحداث المهمة، وتتفاعل مع التحولات التاريخية والسياسية الكبرى في محيطها العربي وحتى العالمي. فالرواية تقدم مشهدًا غنيًا يتحدث عن آثار الهزيمة الحزيرانية القاسية، تلك الواقعة المفصلية المؤثرة في ذاكرة الأمة، وفي نفوس أبناء الجيل الذي شهدها، وما نتج عنها من هزات ارتدادية في الفكر والثقافة والسياسة العربية.

تستدعي الرواية هزيمة العرب في حزيران بوصفها إطارًا لبناء الوعي الاجتماعي، للشباب والطبقة المتعلمة بالخصوص، وفاعليتها في تحول قناعاتهم. فقد جسدت انتصار الصهاينة منعطفًا تاريخيًا، ليس على مستوى الواقع السياسي في المنطقة وحسب، بل على مستوى الوعي الجمعي لجيلٍ بأكمله. فقد كانت لحظة مزلزلة في الوجدان العربي. فقد «**غيرت هذه الهزيمة من تاريخ الأمة العربية تغيرات جوهرية ومثلت لنا وللعالم، أي للقوى الكبرى التي تحرك السلام والحرب والاقتصاد والعلم، منعطفًا أساسيًا في مسار التاريخ**»[30]. لذلك تعيد الرواية كتابة هذا التاريخ من منظور الخائبين، فهي تمثل لجيل واعٍ شهد سقوط السردية القومية، ورأى في الأنظمة والآيديولوجيا التي حكمت البلاد العربية سببًا في حصول تلك الخسارة الفادحة. ومن أجل ذلك أخذ بمراجعة الذات والهوية، وعمل على مُساءلة القناعات والأفكار التي لم تعد تصمد أمام أمواج هذه الصدمة.

بعد استيلاء حزب البعث على السلطة في العراق عام 1968، زعم أنه فكك شبكة تجسس تعمل لإسرائيل، مكونة من أربعة عشر شخصًا، كلهم مواطنون عراقيون، يهود ومسيحيون ومسلمون. وقد عبّرت الرواية عن حزن بعض شخصياتها بسبب تلك الواقعة، إذ «**لم يصدق أكثر البصريين والعراقيين عمومًا أن المشنوقين كانوا جواسيس فعلًا كما يقول التلفزيون**»[31] الذي يروج للخطاب الرسمي، ويسعى إلى تبرير جريمة الإعدام. فالسلطة البعثية كانت في بدايتها، ولعلها كانت تعيش قلقًا وضعفًا، وتحيط بها التهديدات الداخلية والخارجية، ولذلك استعملت القوة والبطش والتخويف والقسوة المفرطة؛ لكي يستتب الوضع لها. في تلك الواقعة أعدم النظام شخصية تجارية مهمة من البصرة هو «**الحاج عبد الحسين جيتا المعروف بالإنفاق على أعمال الخير وبالسمعة الطيبة والتدين، والذي عُلقت جثته في ساحة أم البروم مع اثنين من اليهود المتهمين بالتجسس لإسرائيل**»[32].

عبد الحسين جيتا الذي وُصف بأنه شهيد البصرة الأول، أُعدم بتهمة مرتجلة، حاله حال آلاف العراقيين الذين صفَّتهم أو نكَّلت بهم عصابة البعث؛ من أجل تحقيق غاياتها الدنيئة. عاش جيتا «**حياته في هذه المدينة بكل شرف ومحبة وإخلاص، ثم انتهى به الأمر إلى أنْ يُتهم من حكومة البعث – زورًا وظلمًا – بالتجسس لصالح إسرائيل عام 1969، ثم يحكم عليه بالإعدام، ويُعلق جثمانه على نحو مؤلم في ساحة المدينة التي أحبها وخدمها، وعاش بين أهاليها الذين أخلص لهم أيما إخلاص**»[33]. ولعل الرواية تتناص مع هذه المعلومات التي وردت في المصادر التاريخية، لكي تبين

المنظور الآخر المضاد لمنظور السلطة.

تُكذّب الرواية ادعاءات السلطة، وتفضح الآلة الآيديولوجية التي صاغت من تلك الجريمة نصرًا وطنيًا، وحاولت تكريسه إعلاميًا، فالقول بأن العراقيين لم يصدقوا تلك المزاعم، يعيد كتابة التاريخ من الأسفل، ويعرّضه للنقد، ليعيد رسم حدود الحقيقة، خارج منطق الإعلام والخطاب الرسمي. ولعل استهداف الحاج جيتا يهدف إلى تحطيم الرموز الاجتماعية، التي تحظى بالإجماع والمحبة، فهي سلطة شريرة، تسعى للقضاء على رموز الخير والصلاح. أما التهمة فقد كانت تخدم السلطة من أجل تعبئة وتوحيد الناس أمام خطر خارجي، وتحشيد الرأي العام ضد عدو يرسل الجواسيس ويريد العبث بالأمن الداخلي للعراق.

محكيات الحروب:

تسعى رواية (نور خضر خان) إلى خلط المتخيل بالتاريخ، ونسج سرديات قديمة، ودمجها مع الوقائع الحقيقية، بلغة تسجيلية ممزوجة برؤية الكاتب، «**وهذا هو صنيع الرواية الجديدة ما بعد الحداثية، التي تقاطع الواقع، متأرجحة ما بين واقعية الراهن والمعيش، وواقعية محكي التاريخ... باتجاه تاريخية جديدة تجمع بين سيرورة التاريخ، وتصدع الحاضر، واستدراج المستقبل، وبما يفضي إلى سردنة التاريخي على أساس افتراضي يرى أن التاريخ مسبب للواقع والواقع نتيجة للتاريخ**»[34]. فتستحضر مثلًا بعض الأحداث التاريخية المهمة في العراق مثل: «**حرب الثماني سنوات (...) غزو الكويت (...) وكان الأمريكان يتحشدون على حدود العراق من البحر والبر، واندلعت الحرب، وغدت سماء البصرة خيمة سوداء خانقة، وكان أهلها يتنفسون الدخان ويشربون الماء الخابط والملوث (...) بعد ستة أشهر انتفض الناس والجنود المنهزمون من الكويت، فهاجمتهم فرق الحرس الجمهوري وحصدتهم الدبابات، وصبغت الدماء شوارع البصرة وأرصفتها، وحزز الرصاص جدرانها، وامتد هذا من منتصف شعبان وأوائل آذار 1991 وإلى أعياد نوروز**»[35]. في أتون هذه الحروب الطاحنة كان سكان مدينة البصرة، المغلوبون على أمرهم، مهددين بالموت أو التهجير على مدى سنوات طويلة، فقد كانت ساحة قتال في حربي الخليج، الأولى مع إيران، والثانية بعد غزو الكويت، ومن بعد ذلك انسحاب الجيش العراقي، الذي أحرق آبار النفط الكويتية، فجلبت الريح دخان الحرائق، وتحولت سماء البصرة إلى سحابة سوداء كثيفة، ثم أمطرت عليهم فتلوثت الأرض والمياه، وانتشرت الأمراض الخطيرة.

يشير الاقتباس السابق إلى حدث آخر، بالغ الأهمية في تاريخ العراق الحديث، هو انتفاضة آذار، أو الانتفاضة الشعبانية، عام 1991، التي حصلت على إثر ضعف الدولة، وفرض الحصار الاقتصادي الذي جوّع الناس، ودفعهم إلى الثورة، وإسقاط الحكم البعثي عن مدن وأجزاء كبيرة من العراق. وهذه الحركة الشعبية الواسعة كانت بمثابة رفض عملي للسلطة الدكتاتورية، ولحكم البعث وصدام، ونتيجة حتمية للقهر الذي عاناه الشعب طيلة اثنين وعشرين عامًا، تحول العراق فيها إلى سجن كبير، لكي يتحرر من الطاغية السفاك، الذي كان مسؤولًا عن كل الهزائم التي مني بها في حروبه[36].

تتذكر الرواية أيضًا انتفاضة أخرى حصلت في البصرة، ولم تدم طويلًا، إذ قضت عليها السلطة البعثية بسرعة، وأعدمت كل المتهمين بالمشاركة فيها، ومنهم عدد كبير من طلاب جامعة البصرة. تتمثل الرواية منظور أحد فناني المدينة، فتقول إنه «**أنجز عشرين لوحة عن انتفاضة البصرة 17/ 3/ 1999، فقد أدهشته تلك الروح الحرة الطاهرة التي دفعت أولئك الفتية وأسرهم لتحدي جبروت الطاغية في حينها، وكان من ضمنهم شاب من أقاربنا اسمه شكران، وقد أُعدم**

بطريقة همجية، إذ قطعوا رأسه بالسيف أمام أمه وزوجته عند جسر نظران»[37]. مستعيدةً سرديات الهامش وتاريخ الفئات المقهورة، من منظور الفنان، فهو يجسد تلك الانتفاضة المنسية بوصفه وسيطًا بصريًا ووجدانيًا، يحول الذاكرة الجريحة إلى لوحة، ويجسد الحقيقة في تشكيل جمالي مقاوم للقبح. فقد رأى الفنان ما حمله هذا الحراك الشعبي من معانٍ سامية، وقيم إنسانية عليا، كالحرية والنقاء والطهر والتحدي والتضحية. فالرواية لا تحتفي بانتصار مادي لم يتحقق لهؤلاء الشبان، بل بفعل المقاومة نفسه، فقد وقفوا أمام سلطة جائرة، لا يردعها شيء عن ارتكاب أفضع الجرائم بحق أبناء شعبها، ولذلك كان القصاص منهم عرضًا ممسرحًا، في فضاء عام، وبلغ أقصى درجات الدموية والترويع.

هذه المحكيات التاريخية تدخل إلى الرواية لتسجيل موقف الرفض، ويستحكم عليها هاجس الرد والمواجهة، فالراوي يدين جبروت السلطة، ويصف رأسها بالطاغية، وأفعالها بالهمجية، متمثلًا موقفًا تقويميًا وسياسيًا مضادًا لممارساتها القمعية، مجسدًا المنظور الذي ينحاز للمقموعين والمتضررين من جرائم السلطة البعثية.

- **رواية: لعنة الأمريكان**

يستهل الكاتب (نعيم آل مسافر) روايته (لعنة الأمريكان) بمحكيات تاريخية مفصلية، وموجهة للأحداث القادمة، إذ يمثل الحدث في مفتتح الرواية قاعدة البناء الذي انطلقت منه، وتأسست عليه، وهو حدث التغيير السياسي الأهم في العراق، الذي بدأت العمليات العسكرية الممهدة له في الشهر الثالث من السنة الثالثة في الألفية الثالثة، لكنه تحقق في التاسع من أبريل، في السنة ذاتها.

محكيات التغيير:

تسترجع الرواية بعض ما جرى يوم سقوط نظام صدام في بغداد عام 2003، فتقول: «**أسقطوا التمثال برافعة ثقيلة، ووقفوا متفرجين في ذلك المساء النيساني. ربما كانت تلك إشارة من الأمريكان إلى الناس المتحمسين بأن يفعلوا ما كانوا يتمنون فعله، فسحلوه بالحبال، بصقوا عليه وضربوه بالأحذية، سلبوا بعض أعضائه البرونزية، والتقطوا معه صورًا للذكرى، ومضوا فرحين، كأنهم عائدون من عيد (أكيتوا) انتظروه طويلًا...**»[38]. فيحضر المهمشون بوصفهم عناصر فاعلة في صناعة المشهدين الواقعي والروائي، إذ عبّروا عن مكبوتاتهم عمليًا بالثأر من الممثل الرمزي للسلطة، أي التمثال الذي أزيح عن مكانه، واقتُلع من قاعدته.

يمثل التمثال امتدادًا ماديًا للدكتاتور، ويجسد انتصابه وسط ساحة الفردوس ببغداد سطوته وهيمنته، لذلك فإن إسقاطه تحطيم لرمزية النظام الشمولي. والرواية تستدعي هذا الحدث من أجل تفكيك الصورة الإيقونية التي صُنعت للدكتاتور في أذهان الناس، وتمثل انهيارها عمليًا في ردود فعلهم الحماسية والانتقامية، التي تشي بثأر مكبوت انعكس في طقس كرنفالي جماهيري، وسعادة غامرة بالتغيير السياسي المنتظر منذ عقود طويلة.

تحاول الرواية أن تؤصل لتلك اللحظة الحاسمة، لحظة الخلاص من حكم صدام، وتربطها بالتراث الرافديني القديم، فتشبهها بعيد أكيتو، بوصفه مناسبة للبهجة والفرح والأمل، وتُذكّر بعشتار، آلهة الحب والجمال، وبديموزي، إله الخصب، وكلاهما من آلهة الحضارات العراقية، وكأنها تُلمّح إلى الطبيعة الدائرية للزمن، والعود الأبدي للجذور والأصول، بحسب ما أقره فلاسفة التاريخ.

يقول سارد الرواية عن تلك اللحظات الفاصلة في تاريخ العراق، وكان يتابعها من خلال تلفاز المقهى، في إحدى مدن

الجنوب، مع جمع من الناس: «**انشددت معهم لما كان يُعرض من أحداث إسقاط تمثال الرئيس، حيث كنا نظن تلك الأيام أننا نعيش مرحلة انتظار ديموزي**»[39]. في هذا الاقتباس لا يوثق الحدث فقط، بل ينظر له بعين سردية مشبعة بالدلالات الثقافية والرمزية، إذ لا يرى في لحظة إسقاط التمثال نهاية نظام دكتاتوري وحسب، بل بوصفها بداية عهد جديد منتظر، مثل وعد ميثيولوجي بمجيء منقذ أو مُخلّص يُنصف المقهورين في هذه الأرض. فتعمل الأسطورة السومرية على تخليق الحدث بوصفه إعادة نفخ للروح والحياة والخصب في البلاد، بعدما عانت عقودًا طويلةً من الجدب والاستبداد السياسي في ظل الطغيان. لذلك يصور انشداد الناس لمتابعة تفاصيل الواقعة توقًا شعبيًا عفويًا للخلاص والتحرر.

يختلط المحكي التاريخي بالمتخيل في الرواية، لكن استذكار الواقعة يكاد يكون هو الغاية التي يهدف إليها السرد، وهو النبر الأوضح في صوت السارد، كالذي نجده في استرجاع مشاهد اكتشاف المقابر الجماعية على امتداد خارطة الوطن، فنقرأ فيها قول السارد الشاهد على الحدث: «**اختلط بكاء أولئك الفاقدين بأصوات الجرافات التي تغرس أسنانها في جسد الحفرة، فتخيلتُ أن تلك العظام الموثوقة بالحبال والجماجم المعصوبة بالخرق تذكرت أصوات جرّافات كانت قد دفنتهم أحياءً قبل عقد ونيّف**»[40]. إذ يحيل هذا المقتبس إلى حدثين تاريخيين، يرتبط اللاحق منهما بالسابق، وهما دفن أعداد كبيرة من العراقيين أحياءً، في زمن القمع البعثي، خلال انتفاضة عام 1991، ثم العثور على مقابرهم الجماعية بعد زواله. وقد ربط الروائي ماضي الواقعة بمستقبلها، وإن كان ماضيها غير موثق بالتفصيل، فإن مستقبلها يشير إليها ويدل عليها. كما أعاد تشكيل المادة التاريخية من منظوره، وبناها بناءً فنيًا خاصًا، من أجل تحقيق غايات ثقافية[41].

يبرز في مشهد الكشف عن المقابر الجماعية البعد الوجداني العاطفي لذوي الضحايا، فكأن الجرافات لا تحفر في التراب بل في الذاكرة الجريحة، وكأن الأشياء والصور الصامتة للعظام والحبال والجماجم والخرق قد تحولت إلى بلاغة مرئية، تروي قصة القتل الجماعي، وتعيد للضحايا الأبرياء صوتهم المخنوق وحقهم في الخلود ومقاومة النسيان.

ومن الوقائع التي تؤرخ لها الرواية قتل الناجي الوحيد من الموت والدفن في المقابر الجماعية والشاهد الحي عليها، وذلك في منطقة اللطيفية عام 2005. «**لم يعرف أحد من الركاب أنَّ الشاب الذي قُتل هو حسين صفر، الناجي الوحيد من المقابر الجماعية، وهو شاهد الإثبات الوحيد على ذلك الجحيم الترابي، والذي كان ذاهبًا إلى بغداد؛ ليمثل أمام المحكمة المختصة التي تحقق في جرائم النظام ويدلي بشهادته**»[42]. ولعل قتل الشاهد كان على أيدي من أرادوا إسكاته، وحالوا دون وصوله إلى المحكمة، من أجل أن لا يكشف المزيد عن هذه الجريمة البشعة ضد الإنسانية. لذلك يمثل قتل الناجي الوحيد من المقابر الجماعية اغتيالًا للذاكرة الحية، التي من شأنها إعادة الاعتبار للضحايا، والكشف عن البنية الوحشية للسلطة، من خلال إعادة تشكيل سردية الواقعة التاريخية من منظور الضحية. فكان إسكاته بمثابة إجهاض للعدالة، ومحاولة لإعادة إنتاج منظومة قمعية جديدة، وريثة للنظام السابق، ولكن بأدوات مختلفة، ولعل من أولى مهامها فتح المقابر الجماعية مرة أخرى؛ من أجل محو التاريخ المضاد والسرديات البديلة، ودفن الشهود عليها.

التوق للسلام:

ترد في الرواية أيضًا إشارة إلى المسيرة التي أنهت حرب النجف، التي نشبت مع قوات الاحتلال الأمريكية، عندما عاد المرجع الديني السيد علي السيستاني، من رحلته العلاجية في لندن عام 2004، متخذًا البصرة مبتدأً لطريقه، فامتدت خلفه مسيرة «**طويلة مكونة من آلاف السيارات، وملايين الناس من مختلف الأعمار، لعشرات الكيلومترات من البصرة إلى النجف، خلف رجل أعزل من السلاح، إنها أطول مسيرة سلمية في التاريخ**»[43]. هذه الجموع كانت رافضة للنزاع

المسلح، وللطريقة التي اختارتها بعض القوى للتعامل مع الاحتلال؛ فقد سئم العراقيون من الحروب والدمار، وجاؤوا من أجل السلام والاستقرار. فقد كانت الجموع تنتظر موكب المرجع في مدنها، على امتداد طريقه، ثم تلتحق به[44].

يمثل هذا المحكي واحدة من أكثر اللحظات الدالة على توق الجماهير للخلاص من دوامة العنف المستمر، بوصفه موقفًا ورأيًا عامًا اختار المقاومة السلمية، بديلًا عن السلاح. وهو ما يؤشر تحولًا في المزاج السياسي العراقي، أو ربما نفورًا، من خطاب القتل والقتال، إلى خطاب الحكمة والتهدئة.

على عكس المأمول، تصاعدت وتيرة العنف الداخلي، ومن بين الأحداث المهمة التي تستدعيها الرواية مجزرة معسكر سبايكر، التي ارتُكبت في محافظة صلاح الدين، قرب مدينة تكريت، عام 2014، عندما احتل تنظيم داعش الإرهابي مساحات كبيرة ومدن عديدة من العراق. يقول السارد عنها: «**كان قادة المسلحين يرتدون الزي الأفغاني، وهم حسب لغتهم من العرب والأجانب، أما العراقيون فأغلبهم ملثمون، وينفذون الأوامر فقط، قاموا بتقسيمنا على عدة مجاميع، (...) ثم قسمونا إلى جنود وضباط، وبعدها إلى طوائف (...) ومن يدعي أنه من غير طائفته ويُكتشف أمره يُقتل بأبشع طريقة**»[45]. فالرواية تسجل هذه الواقعة المريعة، وتستذكر ضحاياها الأبرياء، الذين ذهبوا ضحية عدوان شنته قوى إرهابية ودولية، كان هدفه السيطرة على العراق، أو تدميره وإضعافه، حتى لا تقوم له قائمة بين الدول المحيطة به.

صحيح أنَّ المجزرة التي حصلت كانت تحت غطاء طائفي ديني، لكن مرجعيتها تكمن في السياسة، والنزاع المسلح حول السلطة، وهؤلاء الضحايا هم وقود في هذه المعركة. وقد مثلت ذروة الانهيار السياسي والأخلاقي، الذي يستثمر في العنف الطائفي المؤدلج، الذي يميز بين البشر على أساس الانتماء، وهو بلا شك ظاهرة دخيلة على البيئة العراقية، جاءت مع الإرهابيين الأجانب.

الخاتمة

ليس التوثيق وحسب، بل الثأر وردّ الاعتبار للضحايا والمتضررين من جراء الأنظمة السياسية التي حكمت العراق الحديث... هذا ما عملت عليه الروايات العراقية باستدعائها لمحكيات التاريخ السياسي. فقد نهضت بمهمة ثقافية وأخلاقية إزاء ما تعرّض له الوطن والمواطنون، في أزمنة كانت فيها مثل هذه الممارسات السلطوية مبررة ومقننة، وربما تصدر بمراسيم جمهورية أو قرارات من المحاكم.

اختار الروائيون العراقيون، أصحاب النماذج المعروضة، لحظاتٍ مهمة وحرجة في تاريخ بلدهم، وسلطوا عليها الضوء من منظور جبهة المتضررين أو الخاسرين فيها، ومن أبرزها وقائع الصراع على السلطة، والانقلابات، والتصفيات السياسية، بين الحكام وخصومهم.

تَدَخَّل التخييل في إعادة صياغة بعض محكيات التاريخ في الرواية، ولكن يمكن القول إنَّ أغلبها يدخل ضمن الاستعادة المطابقة للتاريخ، وتعني «**استعادة أحداث فعلية، واقعية، تاريخية، حصلت فعلًا في زمان ومكان محددين، (فهي أحداث مطابقة للتاريخ والواقع)، يتم استعادتها ضمن السرد الروائي، ويستدل على واقعيتها من خلال الدلائل التاريخية التي تؤكد حتمية حدوثها كوقائع معروفة ومثبتة**»[46].

انطوت الروايات العراقية على سجل حافل بالأحداث السياسية المهمة والمفصلية، ولبعض الشخصيات المؤثرة في التاريخ السياسي الحديث والمعاصر، ولكن بطريقة التأريخ من أسفل، فكانت مسرحًا لتحقيق العدالة، وإنصافًا للذاكرة

المنسية والمهمشة اجتماعيًا؛ بسبب سعيها للكشف عن وجه السلطة المظلم، والانتصار لضحايا الأنظمة السياسية التي تعاقبت على حكم العراق.

وبشكل أكثر تحديدًا، يمكن الوصول إلى أن رواية (السادس أحمر) وظفت محكيات التاريخ السياسي من أجل تخييل التاريخ وتأويله من منظور نقدي وثقافي. فقد أعادت إنتاج أحداث ووقائع تاريخية عديدة لكشف ما يكمن خلفها من وسائل سياسية وسلطوية.

على حين لم تقم رواية (دروب الفقدان) بإعادة حكاية الوقائع التاريخية فقط، بل جسدت كيفية تحولها إلى سياط تلسع الذاكرة، فهي تربط بين محكي التاريخ السياسي وتجارب الفقد المتكررة: فقد الوطن والأصدقاء والذات والمعنى، وقد أريد للتاريخ أن يكون قوة محو للشخصية والرأي، فعملت الرواية على إعادة موضعته في موقع النقد والمُساءلة والاتهام.

كذلك في رواية (نور خضر خان) جاء المحكي التاريخي لإظهار المنظور المغيب في تشكيل الحدث وسرده، ويفضح بعض الجرائم التي ارتكبتها السلطة، وتوظيفها للعقاب الاستعراضي الردعي.

وأما رواية (لعنة الأمريكان) فقد وظفت محكيات التاريخ من منظور المهمشين لمُساءلة السلطة، وفضح العنف، وتحليل مسارات الذاكرة الوطنية. فالرواية تسعى لمقاومة النسيان، ومجابهة الصمت والإسكات، من أجل فرض سياسة ظالمة، ولذلك شهدت صراعًا رمزيًا، من إسقاط التمثال، إلى تشظي الهوية، إلى مساعي الحصول على السيادة والحرية والوحدة الوطنية.

الهوامش:

(1) يُنظر: رواية السيرة الغيرية: 121.
(2) يُنظر: الخطاب والتغير الاجتماعي: 130.
(3) علم السرد: 57.
(4) شوارع نيرودا: استراتيجيات الرواية العراقية بعد 2003: 15.
(5) السرد القابض على التاريخ: 7.
(6) السادس أحمر: 55.
(7) السادس أحمر: 57.
(8) السادس أحمر: 58.
(9) يُنظر: العراق دراسة في تاريخه السياسي 1908-2005: 224.
(10) السادس أحمر: 137.
(11) السادس أحمر: 85.
(12) السادس أحمر: 86.
(13) يُنظر: جريمة الإرهاب الدولي ومشروعية نضال حركات التحرر: 462.
(14) السادس أحمر: 88.
(15) السادس أحمر: 90.
(16) السادس أحمر: 92.
(17) السادس أحمر: 148.
(18) دروب الفقدان: 214.
(19) يُنظر: الرواية والاستنارة: 34.
(20) دروب الفقدان: 198.
(21) دروب الفقدان: 216.
(22) دروب الفقدان: 220.
(23) دروب الفقدان: 217.
(24) دروب الفقدان: 44.
(25) دروب الفقدان: 176.
(26) دروب الفقدان: 177.

(27) يُنظر: ناظم كزار: سيرة أقوى مدير أمن عام في تاريخ العراق السياسي الحديث: 11.
(28) يُنظر: الزمان والسرد: الجزء الثالث: 287.
(29) نور خضر خان: 227.
(30) انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية: 7.
(31) نور خضر خان: 228.
(32) نور خضر خان: 228.
(33) لماذا أُعدم الحاج جيتا شهيد البصرة الأول: 11.
(34) السرد القابض على التاريخ: 16.
(35) نور خضر خان: 236-237.
(36) يُنظر: انتفاضة الشعب العراقي: 11.
(37) نور خضر خان: 250.
(38) لعنة الأمريكان: 5.
(39) لعنة الأمريكان: 7.
(40) لعنة الأمريكان: 36.
(41) رواية السيرة الغيرية في الأدب العربي: 14.
(42) لعنة الأمريكان: 42.
(43) لعنة الأمريكان: 65.
(44) يُنظر: الرحلة العلاجية لسماحة السيد السيستاني وأزمة النجف: 135.
(45) لعنة الأمريكان: 73.
(46) التمثيل السردي في روايات عالية ممدوح:29.

المصادر والمراجع

1. انتفاضة الشعب العراقي، ماجد الماجد، دار الوفاق، بيروت، الطبعة الأولى، 1991.
2. انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية، شكري عزيز ماضي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1978.
3. التمثيل السردي في روايات عالية ممدوح، أمجد محمد رضا عودة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة البصرة، 2016.
4. جريمة الإرهاب الدولي ومشروعية نضال حركات التحرر، بخاري جميل علي، المركز العربي للدراسات والبحوث العلمية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2020.
5. الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلَف، ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015.
6. دروب الفقدان، عبد الله صخي، دار المدى، بيروت، الطبعة الأولى، 2013.
7. الرحلة العلاجية لسماحة السيد السيستاني وأزمة النجف، حامد الخفاف، دار المؤرخ العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 2013.
8. رواية السيرة الغيرية في الأدب العربي، أحمد بيان عبد السادة، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة البصرة، 2023.
9. رواية السيرة الغيرية، محمد عبيد الله، دار كتارا للنشر، الدوحة، الطبعة الأولى، 2020.
10. الرواية والاستنارة، جابر عصفور، كتاب مجلة دبي الثقافية، الإصدار 55، دبي، د.ط، 2011.
11. الزمان والسرد الزمن المروي، الجزء الثالث، بول ريكور، ترجمة سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 2006.
12. السادس أحمر، أحمد خيري العمري، عصير الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2024.
13. السرد القابض على التاريخ، نادية هناوي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2018.

14. شوارع نيرودا: استراتيجيات الرواية العراقية بعد 2003، غانم حميد الزبيدي، دار أمل الجديدة، دمشق، الطبعة الأولى، 2019.

15. العراق دراسة في تاريخه السياسي 1908-2005، حسن ظاظا، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، 2007.

16. علم السرد مدخل إلى نظرية السرد، يان مانفريد، ترجمة أماني أبو رحمة، دار نينوى، دمشق، الطبعة الأولى، 2011.

17. لعنة الأمريكان، نعيم آل مسافر، دار قناديل للنشر والتوزيع، بغداد، الطبعة الأولى، 2020.

18. لماذا أُعدم الحاج جيتا شهيد البصرة الأول، علي القريشي، دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع، كربلاء، الطبعة الأولى، 2021.

19. ناظم كزار: سيرة أقوى مدير أمن عام في تاريخ العراق السياسي الحديث، شامل عبد القادر، مكتبة المجلة، بغداد، الطبعة الأولى، 2014.

20. نور خضر خان، جابر خليفة جابر، خطوط وظلال للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الأولى، 2022.